

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (74- 95):تفسير الآية 216، الأشهر الحرم وإحياء العمل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-05-2000

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

### السؤال علامة الإيمان :

أيها الأخوة المؤمنون.. مع الدرس الرابع والسبعين من دروس سورة البقرة، ومع الآية السادسة عشر بعد المنتين، وهي قوله تعالى:

### ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ )

لا بد من وقفة قصيرة حول كلمة: " يسألونك "، إذا آمن المؤمن بالله إيماناً صحيحاً؛ آمن به موجوداً، وآمن به واحداً، وآمن به كاملاً، همُّه الأوَّل، وشغله الشاغل أن يتحرى أمره ونهيه كي يعبد، فإن عرفته بقي أن تعبد، وإن عرفته من خلال الكون بقي عليك أن تعبد من خلال الأمر والنهي، فهُمُّ المؤمن الأوَّل وشغله الشاغل الذي لا يعلو عليه شيء هو أن يتحرى الأمر والنهي، وعلامة المؤمن الصادق أنه يسأل: هل هذا حرام؟ وهل هذا حلال؟ أفیه شبهة؟ وهل يرضي الله أم أنه لا يرضي الله؟ أيجبني عن الله أم يُقرَّبني من الله؟ وهل يُحبُّب عملي أم يؤكِّد أملي؟ فلا بد من أن تسأل، والسؤال علامة الإيمان، أما هذا الذي لا يسأل فلأن موضوع الدين كله خارج اهتمامه.

نجد الإنسان الغارق في المعاصي والمخالفات لا يخطر في باله أن يسأل: هل دخلي صحيح؟ وهل هو مشروع؟ وهل تربية أولادي صحيحة؟ وهل خروج بناتي بشكل يرضي الله؟ وهل أنا أب ناجح في أبوتي؟ وماذا أفعل؟ فهذا الذي يسأل سؤاله علامة إيمانه. وأصحاب النبي عليهم رضوان الله سألوا النبي عليه الصلاة والسلام في ثلاث عشرة مسألة كلها ورد فيها آياتٌ مصدره بقوله تعالى:

### ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ )

## الحكمة من تحريم القتال في الأشهر الحرم :

الحقيقة يقول الله جل جلاله في آيةٍ أخرى:

( **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ** )

[ سورة التوبة: 36 ]

رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ما حكمة هذه الأشهر؟ لأن الله جل جلاله هو خالق البشر، وهو الخبير، فإن نشبت حربٌ بين فئتين، أو بين جماعتين، أو بين أمّتين، أو بين دولتين، فما الذي يحصل؟ الحرب تستعر وتستمر حتى تحرق الأخضر واليابس ولا تقف، وقد سمعت قبل أيام أن أفقر دولتين في العالم من دون استثناء نشبت بينهما حرب، وتكاليف هذه الحرب كل يوم مليون دولار، طبعاً لصالح الطرف الآخر الذي يبيعهما السلاح. على كلٍ جعلت هذه الأشهر الحُرُم من أجل أن يحرم فيها القتال، فحينما تنشب حرب ويأتي شهر رجب تقف الحرب، وليس هناك غالب ولا مغلوب من أجل الكرامة الإنسانية.

والإنسان أحياناً يُضحّي بكل شيء، ويُحرق ويتلف كل شيء من أجل كرامته، فإذا نشبت الحرب تعلق قضية الكرامة الإنسانية، فكل خصم مصرّ على متابعة الحرب، فإذا جاء هذا الشهر الحرام، فهذا منهج الواحد الديان، تقف الحرب، وليس هناك منتصر ولا منهزم، ولا غالب ولا مغلوب، فإذا ذاق الناس طعم السلم، وارتاحوا، وأمنوا، فلعلهم يُتابعون طريق السلام، وهذه حكمة الله عز وجل، فحروبٌ كما تعلمون نشبت بين أمّتين، أو جماعتين، أو شعبين مسلمين، كانت الكلفة مليون قتيل والدولتان المتحاربتان تراجعتا منّي عام، فلو أنهما طبقتا منهج الله عز وجل لما وصلنا إلى هذه النتائج المدمرة..

( **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ** )

[ سورة التوبة: 36 ]

هذه بعض الحكم، فالحرب والقتال في الأشهر الحُرُم محرّم من أجل حفظ ماء الوجه، وحقق الدماء، وحفظ الأموال، وسلامة الحياة.

## حكم القتال في الأشهر الحرم كبير :

أرسل النبي عليه الصلاة والسلام سرّيّة من ثمانية من أصحابه الكرام، وأعطى قائد السريّة " عبد الله " كتاباً أمره أن يفتحه بعد يومين، فتحه فإذا النبي عليه الصلاة والسلام يأمره أن يرّقبَ غيرَ قريش فيما

بين مكة والمدينة، وأن يرفب حركاتها وسكناتها، ويبدو أن هذا الصحابي الجليل وجد قافلة، فأسر اثنين، وقتل واحداً، وفر ثالثاً وجمع الغنائم، وجاء بالأسيرين والغنائم إلى النبي عليه الصلاة والسلام. والنبي عليه الصلاة والسلام لم يأمره بهذا، فلم يقبل الغنائم، ولا أن يبقى الأسيران، لأن هذه المناوشة وقعت في يوم هو عند قائد السريّة من الأشهر غير الحُرْم من جمادى الآخرة، وبحسابٍ آخر هو أول رجب، ولذلك أقامت العرب النكير، أقامت الدنيا ولم تقعدّها، وقالوا: إن محمداً ينتهك حرمة الأشهر الحرم، وإنه قتل في الأشهر الحرم، وأخذ الأموال وأسر الأسرى في الأشهر الحرم.

وكما تعلمون فإن أفراد الطرف الآخر دائماً يراقبون أهل الحق بمناظير مكبرة، يحسبون على المؤمن أنفاسه، فإذا حدث خطأ طفيف كبروه مئة ألف مرة، وهذا الذي حدث، أن العرب أقامت الدنيا ولم تقعدّها وهي تقول: إن محمداً انتهك حرمة هذه الأشهر، وقتل في هذه الأشهر وأخذ الغنائم في هذه الأشهر، وأسر في هذه الأشهر، واهتم النبي عليه الصلاة والسلام كثيراً لأنه لم يكن يريد أن يقع الذي وقع، فجاءت الآية الكريمة تُبرئُ قائد هذه السرية، وتبرئُ الذي أمره بهذا. فقال الله عز وجل:

**( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ )**

أي يجوز القتال فيه؟ وأن تنتهك حرمة؟ وأن يقتل فيه إنسان؟ وأن يُؤسّر فيه إنسان؟ يجوز أن تسلب فيه الأموال كغنائم؟

**( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ )**

ما حكم القتال فيه؟ وكأنه تعريضٌ بما فعل قائد السرية، فقال الله عز وجل:

**( قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ )**

كبير.. ولكن الإسلام ليس من السذاجة بحيث يجعل من هذه المُقدّسات مِراساً لأهل الكفر والضلال.

## أمانة المجالس :

فكرة دقيقة جداً لا بد من التوضيح فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

**((إنما المجالس بالأمانة))**

[ الجامع الصغير عن ابن عباس ]

فما يقال في أي مجلس يجب أن يبقى سراً بين من حضر هذا المجلس، ولا يجوز لواحدٍ من الحضور أن ينقل ما جرى في هذا المجلس للناس، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

**((إنما المجالس بالأمانة))**

[ الجامع الصغير عن ابن عباس ]

بل إن النبي ذكر أدق من هذا، إذا حدّثك إنسانٌ حديثاً، وشعر أن إنساناً قد مر إلى جانبه فالتفت، التفتاته الحذر دليل أن هذا الحديث يجب أن يبقى أمانة بينك وبينه، الحديث المشهور:

### ((إنما المجالس بالأمانة))

[ الجامع الصغير عن ابن عباس ]

قال:

**"إلا مجلساً سَفِك فيه دمٌ حرام، أو انتهك عرضٌ حرام، أو أخذ فيه مال حرام"**

هذا المجلس ليس بالأمانة، كأن تكون جالساً بمجلس وهناك خطة لقتل إنسان فيجب أن تخبره، أو هناك خطة لانتهاك عرض امرأة، أو لسلب مال، فهذا المجلس الذي بُنيَ على معصية ليس له حُرْمَةٌ، إنه بني على خرق لحدود الله، وعدوان على أشخاص، أو على أموال، أو على أعراض، فقد حرّمته، ويجب أن تُخبر أولي الأمر، هناك مثلاً خطة لانتهاك عرض فلانة، هذا مثل للتقريب، المقدمات مقدسات..

( قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ )

( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ )

وهذا صحيح إنه شيء مقدس، وحدود يجب ألا تُنتهك، وقيم يجب أن لا تداس، ولكن الكفار حينما يصدّون الناس عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام، وحينما يخرجون أهله منه، عدواناً، وظلماً، وتعتناً، واستكباراً، وقهراً، أليس هذا أكبر؟

**الحدود التي حدّها الله إنما شرّعت لحماية المؤمنين لا لتكون متراساً للكفار:**

لذلك فالفكرة الأولى: أنه لا يمكن أن تكون بعض المقدمات التي تعارف المجتمع عليها متاريس يترس بها أهل الضلال، والأمثلة كثيرة جداً؛ فهناك فاسق فاجر، يفعل المنكرات والقاعدة الأساسية يجب ألا تغتابه، فهو مرتاح، إذا يفعل وهو مطمئن أنه لن يتحدّث مسلم عنه بسوء خوفاً من الله عز وجل، لا:

(( لا غيبة لفاسق ))

[الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه]

لا نسمح لفاسق فاجر أن يترس بحرمة الغيبة، فالفاسق والفاجر لا غيبة له. أراد مثلاً أن يبيع بيتاً، وهناك خلل في أساسه، فأنت ينبغي لك أن تخبر المشتري، ليس هناك مانع، أن تجعل هذا البيع فاسداً، وإنسان خطب من أسرة، وهو منحرف في سلوكه، وعباداته، وعقيدته، فيجب أن تبلغ عنه، أما أن تتخذ من تحريم الغيبة متراساً لك تتعم به، وأنت على ضلال!! إذ دائماً القواعد، والمقدمات، والحدود تحمي المؤمنين ولا تحمي غير المؤمنين.

القضية دقيقة جداً: فالمقدسات والمحرمات والحدود التي حدّها الله عز وجل هذه إنما شرّعت لحماية المؤمنين، لا لأن تكون متراساً للكفار والمنحرفين. فالفاسق ليس له غيبة، ومجلس ترتكب فيه الكبائر ليس له حرمة، وإنسان يريد أن يغش الناس ليس له حرمة إطلاقاً، فالمؤمن لا تظلمه، ولا تؤذّه، ولا تسخر منه، أما حينما يخرج من مظلة الإسلام ويفعل ما يريد، فعندئذٍ يجب أن يلقي جزاء عمله، فهذا معنى قوله تعالى:

( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ )

أيجوز أن يقاتل فيه؟ أيجوز أن تسفك فيه الدماء؟ أيجوز أن تسلب فيه الأموال؟ أيجوز أن يؤسر الأسير في الشهر الحرام؟

لن تكون حرمة هذا الشهر سبباً لطغيان أهل الباطل :

قال تعالى:

( قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ )

من حيث المبدأ، ولكن هناك عمل أكبر منه..

( وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ )

فالإنسان دون أن يشعر، تجد الشاب في أسرة - أنا أعالج قضايا جزئية صغيرة- لا يصلي، يأتي بعد منتصف الليل كل يوم، له أصدقاء سوء، متفكّ، غير منضبط، لا توجد عليه مشكلة بالأسرة أبداً. أما حينما يلتزم مسجداً، ويغضُّ بصره، ويرفض أن يختلط بمن لا تحل له، ويرفض أن يخرج على ما ألفه من حوله، يقام عليه النكير، أليس هذا صدأً عن سبيل الله؟ ما دام الإنسان في فسق وفجور لا أحد يحاسبه، بل إنهم يثنون عليه، أما حينما يلتزم شرع الله، ويرفض الاختلاط، ويرفض أن يغش الناس، ويرفض أن يتجاوز حدوده بل يلتزم ويخشى الله عز وجل، تقام عليه الدنيا ولا تقعد، أليس هذا صدأً عن سبيل الله؟ فمن أكبر الجرائم أن تصد الناس عن سبيل الله.

هناك أسلوب آخر: الشاب إذا التزم يُصدُّ عن التزامه. الآن إذا التزم هذا الشاب مع إنسان فلا بد أن يطعنوا في هذا الإنسان، وذلك لوجه الشيطان، ولا بد من أن يسفّوها مثله الأعلى، وأن يسفّوها عمله، فلا بد من أن يُتهم هذا الذي التزم معه، كصدِّ عن سبيل الله، والإنسان أحياناً يصد عن سبيل الله وهو يشعر، وأحياناً كثيرة يصد عن سبيل الله وهو لا يشعر، فكأن شيطاناً ينطقه، وكأن شيطاناً يدفعه، وكأن جهة خبيثة تُغريه، فإذا تحدّث لا يتحدث إلا حديثاً لا يرضي الله عز وجل، فلا ينتبّه، ولا يتأكّد، ولا يتحقق، لذلك:

( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ  
وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ )

أكبر من أن تُنتهك حرمة هذا الشهر، فلن تكون حرمة هذا الشهر سبباً لطغيان أهل الباطل.

الصد عن سبيل الله له وسائل كثيرة جداً :

أيها الأخوة... لنحذر جميعاً دون أن نشعر فنصد عن سبيل الله؛ فإنسان سلك طريقاً صحيحاً، وآخر عاهد الله على أن يضبط لسانه، وثالث عاهد الله على أن يغيض بصره، ورابع له جلسة مع أصدقاء، وهذه الجلسة ليس فيها ما يرضي الله، فانسحب منها، دَعُهُ يَصلح مع الله، فهناك شياطين الإنس يصدُّون عن سبيل الله وهم لا يشعرون، وكم من إنسان يصدُّ من حوله عن سبيل الله وهو يحسب أنه يحسن صنعا.

فأنت حينما لا تتأكد مما تقول، فبدون دليل أو تحقق أو تريث تتهم إنساناً جمع الناس على الحق، فأنت ماذا فعلت؟ صددت الناس عن سبيل الله. لمجرد أن ترى إحدى قريباتك المحارم قد تحجبت، إن ازدريت حجابها ولو عن طريق المزاح، فأنت بذلك صددت عن سبيل الله وأنت لا تشعر، فيجب أن تشجعها، وأن تثني عليها، وعلى قرارها.

أحياناً يأتي إنسان من بلادٍ بعيدة فيها كل شيء مريح، ولكنه خاف على مستقبله، ومستقبل أولاده، فعاد إلى وطنه ليخدم أبناء وطنه، فهناك من يتهمة بالجنون، هذا الذي يتهمة بالجنون يصد عن سبيل الله. طبعاً حينما يأتي الإنسان من بلدٍ متطور، غني، متفوق في الدنيا، إلى بلدٍ نامٍ سيواجه صعوبات كثيرة، فيجب أن تشجعه، والله أنا أقول لإنسان أراد أن يعود إلى وطنه ليخدم أمته: والله ما اتَّخذت في حياتك كلَّها قراراً أصوب من هذا القرار، ولا أحكم من هذا القرار، والله عز وجل سوف يوقِّفَكَ ويأخذ بيدك، ويحمي لك أولادك، فشجِّع لأن الصد عن سبيل الله له وسائل كثيرة جداً، فإنسان ترك بلاد الكفر، بلاداً ترتكب فيها الفواحش على قارعة الطريق، بلاداً لا يمكن أن يضمن لأولاده بقاءهم فيها مسلمين؛ وجاء إلى بلده الأم ليخدم أبناء أمته، وقد يتحمَّل بعض الصعوبات، لمجرد أن تحطُّئه بهذا القرار فأنت ممن يصد عن سبيل الله.

فتاة مؤمنة تعرفت إلى الله، فلبست الحجاب، لمجرد أن تقول لها مثلاً: هذا الحجاب أذهب بعضاً من جمالك. فأنت صدقتها عن سبيل الله دون أن تشعر، ولمجرد أن ترى إنساناً أراد الحلال وترك الحرام، ورضي بالحلال القليل، وترك الحرام الكثير، إن قلت له: لم تكن عاقلاً في هذا السلوك، يجب أن تعلم علم اليقين أنك صددت عن سبيل الله.

## صد الناس عن سبيل الله جريمة أكبر من أن تنتهك حرمة الشهر الحرام :

والله أيها الأخوة أكاد أقول لكم: هناك مليون أسلوب، دون أن تشعر، كله صد عن سبيل الله، قال: هذا أكبر من أن تنتهك حرمة الأشهر الحرم، أن تصد الناس عن سبيل الله، أن تمنع شاباً يصلي، وأراد طاعة الله، ورضي بالقليل الحلال وزهد بالكثير الحرام فتقول له: أنت مجنون بهذا العمل، فهذا صد عن سبيل الله، وعلى الإنسان قبل أن يقول كلمة لا ترضي الله أن يحاسب نفسه حساباً كثيراً:

**((إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))**

[ الترمذي عن أبي هريرة ]

أحياناً بالمهين اليومية هناك أساليب مربحة وتربي ثروة طائلة ولكن فيها مخالفة، فأنت حينما تلتزم جانب الشرع، ولا تقبل الاختلاط في معهدك فرضاً، أو تلتزم جانب الشرع ولا ترضى أن تنتهك حرّمات الله عز وجل في عملك الرسمي، أو في عملك التجاري فيقل دخلك، فأنت حينما تقول لهذا الإنسان: أخطأت، وليس هذا هو الطريق الصحيح. فقد صدت الناس عن سبيل الله. فربنا عز وجل جعل صد الناس عن سبيل الله أكبر جريمة، بل أكبر من أن تنتهك حرمة الشهر الحرام..

**( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ )**

لعلي ألممت بجانب من معاني هذه الآية، الصد عن سبيل الله في كل عصر، وفي كل مصر، وفي كل بيئة، إنك حينما تتبسط عزيمة مؤمن فأنت قد صدت عن سبيل الله، وحينما تُسَفِّه عملاً مشروعاً فقد صدت عن سبيل الله، وإذا رأيت إنساناً يتصدق بماله، وقلت له: احفظ قرشك، أمسك يدك. هو ماذا يفعل؟ هل ينفق ماله على الملاهي؟ بل ينفق ماله في سبيل الله، ولمجرد أن تخوفه من الفقر إذا أنفق ماله في سبيل الله فقد صدت عن سبيل الله.

الموضوع يحتمل شواهد كثيرة جداً، وكل واحد منا محاسب على كل كلمة يقولها، فقد يتكلم بكلمة لا يلقي لها بالاً، فيهوي بها في جهنم سبعين خريفاً، لا تكن عوناً للشيطان على أخيك، كن عوناً له على الشيطان.

لقد حدثني مرة أخ متألم جداً من أخ زوجته فقال لي: شكوت له أخته، فقال لي: طلقها وبأول كلمة، يقول طلقها! فإذا دفعت الناس إلى تطليق زوجاتهم فقد صدت عن سبيل الله، وإذا دفعت الناس إلى أكل المال الحرام فقد صدت عن سبيل الله، وإذا دفعتهم إلى الحرام فكذلك صدت عن سبيل الله.

حينما ترفض حكماً من أحكام الشرع الثابتة بالكتاب والسنة فهذا نوع من الكفر:

جريمة ثانية ارتكبتها الكفار:

( وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفِّرَ بِهِ )

أيضاً هذا المفهوم يجب أن يوسع قليلاً، طبعاً كلمة " كفر " كلمة كبيرة جداً، لكن لهذه الكلمة معنى ضيقاً ولها معنى مُتَّسع، فالمعنى الضيق: أن تنكر وجود الله، أو أن تنكر هذه الأديان السماوية، أما المعنى الموسع: فحينما ترفض حكماً لله، فهذا كفر.

فإذا قلت مثلاً: إن قطع اليد، هذا الحد لا يتناسب مع هذا العصر، فهذا عصر حقوق الإنسان، وكرامة الإنسان، والإنسان هو الهدف، فأنت إن قلت هذا الكلام المعسول كفرت دون أن تشعر، لأنك رددت حكماً ورد في القرآن الكريم، والله عز وجل يعلم السر وأخفى ويعلم ما سيكون، فحينما ترفض حكماً لله، وحينما ترفض مثلاً (الاستثمار الربوي) يقول: هكذا العالم كله يثمر أمواله عن طريق البنوك والربا، فماذا نفعل؟ لا بد من هذا، تقول له: يا أخي هناك آية:

( فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ )

[ سورة البقرة: 279 ]

يقول: هذا القرآن ليس لهذا العصر، فأنت حينما ترفض حكماً من أحكام الشرع الثابتة بالكتاب والسنة، فهذا نوع من الكفر.

الكفر المبطن :

قال تعالى:

( فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ )

[ سورة النساء: 65 ]

لو فرضنا احتكم شخصان إلى عالم، والعالم أدلى برأي مُدللٍ بالكتاب والسنة، وحكم وفق كتاب الله، فإذا رفض الطرف الذي حكم عليه هذا الحكم فقد انخلع منه الإيمان، لأن الله عز وجل قال:

( فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ )

[ سورة النساء: 65 ]

طبعاً في حياة النبي يُحَكَّم هو بالذات، أما بعد موته فتحكم سنته..

( فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ )

[ سورة النساء: 65 ]



فأنت حينما ترفض حكم النبي، وترفض سنة النبي، فهذا نوعٌ من الكفر ولذلك قالوا: هناك كفرٌ يُخْرَجُ من المِلَّةِ، وهناك كفرٌ دون كفر، وهناك إنسان ليس مقتنعاً ببعض الأوامر، وليس مقتنعاً ببعض السنن، فعدم قناعاته ببعض الأوامر، وعدم قناعاته ببعض السنن هذا نوعٌ من الكفر المُبْطِن، وهذا كفرٌ دون كفر، والآية الكريمة:

( إِنَّا أَنهَمُ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ )

[ سورة التوبة: 54 ]

كفروا:

( وَكَأَيُّونَ الصَّالَةِ إِنَّا وَهُمْ كُفَالَى )

[ سورة التوبة: 54 ]

معنى ذلك أنهم يصلون:

( وَكَأَيُّفُونَ إِنَّا وَهُمْ كَارهُونَ )

[ سورة التوبة: 54 ]

**هَمُّ الكفار أن يأتوا بتشريع أو بأسلوب غير أسلوب الدين وشريعته :**

أنا حينما لا أعبأ بأمر الله ولا بنهيه، ولا أقيم وزناً لسنة النبي، ولا أعظم شعائر الله، فهذا نوعٌ من الكفر المُبْطِن، إنه كفرٌ دون كفر، وما أكثر مَنْ يتحدث ويقول: هذا لا يصلح لهذا الزمان، وهذا لا يمكن أن يكون، ويقول: هذا لا بد من تعديله، وهذا لا بد من إلغائه. فهذا الذي يريد أن يقدم بين يدي الله ورسوله تشريعاً أو منهجاً غير منهج النبي، فقد وقع في كفرٍ من النوع الثاني. ولذلك الآية الكريمة دقيقة جداً، وهي قوله تعالى:

( وَإِن كَادُوا لِيَقْتُلُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيْنَا إِلَيْكَ لِيَقْتُلِي عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِنَّا لَلتَّخْذُوكَ خَلِيلاً )

[ سورة الإسراء: 73 ]

أي أن جهْد الكافرين من عهد النبي وإلى قيام الساعة أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، ليحل محل دينهم منهجٌ آخر، وطريقةٌ أخرى، وأسلوبٌ آخر، وتشريعٌ آخر:

( وَإِن كَادُوا لِيَقْتُلُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيْنَا إِلَيْكَ لِيَقْتُلِي عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِنَّا لَلتَّخْذُوكَ خَلِيلاً\*وَلَوْ أَن تَبَتَّنَاكَ

لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً\*إِنَّا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ )

[ سورة الإسراء: 73-75 ]

فهْمُ الكفار أن يأتوا بتشريع، أو بطريقةٍ، أو بأسلوب غير أسلوب الدين وشريعته وطريقته.

## الصد عن بيت الله الحرام هذا أيضاً من الجرائم الكبرى :

قال تعالى:

( وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفِّرَ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ )

هذا البيت، بيت الله المعمور، هو أول بيت وضع للناس اتخذه الله بيتاً له، ومن دخل هذا البيت فهو آمن، جعله الله مثابة للناس وأمناً..

( وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً )

[سورة البقرة: 125]

حينما تُسَفِّهَ عظمة هذا البيت، فهذا أيضاً من الجرائم الكبرى، فإذا قال لك إنسان: والله أنا متشوق أن أذهب إلى بيت الله الحرام. إن سَقَّهْتَ هذه الرغبة عنده، فهذا نوع من الصد عن بيت الله الحرام، وإن صددت الناس عن الحج أو عن العمرة، وكانوا مشتاقين إليها، فهذا نوع من الصد عن بيت الله الحرام، الذي جعله الله مثابة للناس، وجعله أمناً لهم، وجعل العطاء فيه جزيلاً، " فمن وقف في عرفات ولم يغلب على ظنه أن الله غفر له فلا حج له "، فأنت في الحج كأنك تفتح مع الله صفحة جديدة تعود كيوم ولدتك أمك، فالصد عن سبيل الله والكفر به، والصد عن المسجد الحرام، من الكبائر التي دونها انتهاك حرمة الشهر الحرام.

( وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ )

إنسان عُدِّبَ لأنه قال: ربي الله!! فكل إنسان مستقر في بلده، وفي عمله، وبيته، لأنه قال: ربي الله، يجب أن تخرجه من بيته؟! أيضاً هذا عدوانٌ كبير جداً.

## الفتنة أكبر من القتل :

أيها الأخوة... هذه الآية دقيقة جداً:

( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ )

أما الحقيقة الدقيقة:

( وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ )

أوضح شيء: لو أن جاهلياً وأد ابنته الصغيرة التي هي كالمك فتاة بريئة طاهرة، لأن أباه كان جاهلياً دفنها في الرمال وهي حيّة، طبعاً ارتكب جريمة ما بعدها جريمة، قال تعالى:

( وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ \* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ )

[ سورة التكويد: 8-9 ]

أما هذا الأب الذي يتساهل مع ابنته فتخرج بثياب فاضحة، تبرز كل مفاتنها، ويسمح لها أن تلتقي مع من تشاء، وأن تجلس في أي مكان تشاء، وأن تأتي إلى البيت في ساعة متأخرة، مثل هذا الأب لم يبد ابنته بل أطلق لها حريتها، وجعلها تفعل ما تريد، فقد فتنها عن دينها فانحرفت، وفسقت، وسقطت، أي البنيتين أسلم مصيراً في يوم القيامة؟ الأولى إلى الجنة لأنها ماتت قبل التكليف، أما الثانية فتقول: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي.

الفتنة أكبر من القتل، فإذا قتلت إنساناً وكان مظلوماً، وكان مؤمناً فقد مات على الإيمان قتلاً، وذهب إلى الجنة، أما إنسان ما قتلته، بل فتنته عن دينه، وأغريته بالمعاصي، ودلته على الزنا، وعلى شرب الخمر، وجعلته يرتاد نوادي القمار، فصار مخموراً مقامراً، زانياً عربيداً فأنت لم تقتله، ولكنك فتنته عن دينه.

حدثوني: أن إنساناً صار يُسجّل ما تبثه الفضائيات المنحرفة - الأفلام الإباحية - يسجلها، وجاء بأجهزة عرض في دكان صغيرة، وسمح للشباب أن يروا هذه الأفلام بأجر بسيط، أقسم لي أحدهم أن شباباً كثيرين كانوا قد سلكوا طريق حفظ كتاب الله، وارتادوا المساجد، فلما دخلوا وشاهدوا هذه الأفلام، خرجوا من دينهم كله؛ فقد ترك القرآن، وترك الحفظ، وترك الجامع، لأنه شاهد شيئاً لا يعرفه. فالفتنة أكبر من القتل، فإنسان قتلته، إذا كان مؤمناً مظلوماً، فإلى الجنة، أما إنسان فتنته، وأغريته بالمعصية، وبكل منكر فأنت رفيقه في النار!! وإنني أعرف إنساناً ترك الصلاة بسن الخامسة والخمسين، واشترى هذا الصحن، والفتنة أكبر من القتل، فيجب أن نعلم علم اليقين؛ أن الإنسان حينما ينحرف، ويفسق، ويفجر يهلك نفسه، فالهلاك الخطير أن يفسق الإنسان، وأن يجحد شرع الله عز وجل.

## الارتداد عن الدين أنواع :

الآن حقيقة جديدة: فانه عز وجل خالق الكون، وخالق البشر، وهو العليم الخبير:

( وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ )

[ سورة فاطر: 14 ]

قال:

( وَلا يَزَالُونَ )

لا زال غير (لا يزال) التي تفيد الاستمرار..

( وَلا يَزَالُونَ يُعَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا )

جهد الكفار أن يردوا المؤمنين عن دينهم من خلال المعاصي والآثام، فقد يئس الكافر أن يواجه هذا الدين مواجهة، فماذا يفعل؟ يفجره من داخله، فيصطنع اتجاهات في الدين ليست صحيحة، وتعطى فتاوى غير معقولة إطلاقاً، فيصير الدين غازاً، لقد كان شيئاً صلباً له حجم، ووزن، وطول، وعرض، وارتفاع، ثم صار ليناً، ثم غدا لزجاً، ثم انقلب سائلاً، ثم أصبح غازاً لا شيء فيه. فهناك أساليب لمحاربة الدين وأحد هذه الأساليب محاربة السنة، وأحد هذه الأساليب الفتاوى غير المعقولة إطلاقاً، فكل شيء مباح، ولكل معصية فتوى، وهذا أحد الأساليب من أجل أن يرتد المؤمن عن إيمانه؛ فهذه سمح بها، والربا سمح به، والاختلاط، والغناء، والرقص، والتمثيل سمح بها كلها، والربا بنسب سمح بها، فماذا بقي من الدين؟

الارتداد عن الدين أنواع: إما الإغراء بالمعاصي والآثام، وإما إصدار الفتاوى غير المعقولة التي تلغي هذا المنهج القويم، وإما محاربة أصل الدين. وعلى كلٍ فمحاربة مبادئ الدين طريقٌ مسدود، فأى كاتب يتكلم كلمة فيها إساءة للدين، تقام عليه الدنيا ولا تقعد، والطريق الآخر وهو إغراء الناس بالمعاصي والآثام، وهذا نوع من الارتداد عن الدين.

#### المنافق عمله يهلكه ويفسد عليه آخرته :

قال تعالى:

( وَلَا يَرَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمْتُ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ )

الناقة أحياناً تأكل أكلاً غير معقول، فينتفخ بطنها وتموت، نقول: حبطت الناقة، أي ماتت وهلكت، والمنافق حينما يأخذ من الدنيا فوق ما يكفيه من طريق غير مشروع، وحينما ينغمس بالمعاصي إلى قمة رأسه، فهذا الإنسان يحبط عمله، أي إن عمله أهلكه وأفسد عليه آخرته، قال:

( وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمْتُ وَهُوَ كَافِرٌ )

أحياناً يرتد الإنسان عن الدين دون أن يُعلن ذلك، فالدين لا يعجبه، ولا أهل الدين، ولا منهج الدين، ولا سنة النبي الكريم، ولا العبادات، كلها تتناقض مع هذا العصر، ولا يعجبه أن يصلي خمس صلوات في اليوم أو أن يصوم، فالإنسان له طاقة، وبالصيام تضعف طاقته، فلم يعد منتجاً بالصيام، فالذي لا تعجبه العبادات، ولا العقائد، ولا التوحيد، ولا منهج النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا مرتد عن دينه دون أن يشعر.

قال تعالى:

( وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمْتُمْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ )

حبطت أعمالهم أي أهلكتهم، وهناك بالطبع معان أخرى لإحباط العمل، فالله قال:

( وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا )

[سورة الفرقان: 23]

أعمال كالجبال، ولكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها، إذا أعمال تمثيلية:

(( لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالٍ تَهَامَةٌ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلَّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نُكُونَ مِنْهُمْ، وَتَخُنْ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَّا إِنَّهُمْ أَخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا ))

[ابن ماجه عن ثوبان]

أحياناً يكون الإنسان ذكياً جداً، فيعمل عملاً طيباً مقبولاً عند الناس، والناس يثنون عليه، أما هو فليس كذلك، فربنا عز وجل يحبط عمله، فالإحباط قد يكون العمل طيباً ولكن وراءه نفاق أو نية خبيثة، فهذه النية الخبيثة وهذا النفاق يحبطه.

شيء ثان: أحياناً قد يكون العمل خلاف الشرع، قرأت خيراً أن بأمريكا يانصيباً، الجائزة الأولى ثلاثمئة وخمسون مليون دولار، ما هذه الثروة الطائلة؟ لكن العمل خلاف الشرع مثلاً، إما أن يكون العمل مخالفاً للشرع بالأساس، أو أن يكون وفق الشرع ولكن نيته ليست سليمة، كلا العاملين يحبطه الله عز وجل، لذلك:

( وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمْتُمْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ )

سأل النبي الكريم :

(( أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَدَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَقَكَ دَمَ هَذَا، وَضْرَبَ هَذَا، فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصَّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ

حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فُتِنَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصَّ عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ  
(( فِي النَّارِ ))

[ مسلم عن أبي هريرة ]

هذا هو إحباط العمل..

( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ )  
بالمقابل:

( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا )

الإيمان الصحيح..

( وَالَّذِينَ هَاجَرُوا )

بالمعنيين المعنى التاريخي: ترك مكة إلى المدينة، والمعنى الآخر: هجر المنكر..

( وَجَاهَدُوا )

بذلوا الجهد في سبيل الله..

( أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ )

والحمد لله رب العالمين